الفكر الشرقي القديم

المرحلة الأولى / قسم الفلسفة

مدرس المادة

م.م. عقيل جبار جاسم

أولاً : أصالة الفلسفة بين الشرق والغرب

تُعدّ الفلسفة ركيزة مهمة ومنطلقاً أساسياً لصياغة فهم ورؤية كونية واضحة عن الكون والحياة ، وهي بذلك تضع لكل شيء حدَّهُ وتحدّد موقعه وترسم له الخطى ما بين مبدئه ومنتهاه.

ولا شك في عمق الفلسفة ودقة بحوثها بما تتضمنه من مسائل جُعل العقل أداة وحيدة لحلها وبيان مداخلها ومخارجها ، مما يتطلب همّة عالية وجهداً وافراً لاستيعاب مطالبها وحل غوامضها وألغازها ، الأمر الذي بعث على استيحاش روّاد الحقيقة من الخوض في غمارها والدخول في تفاصيلها.

ومما زاد في الطين بلّةً أن علماء الفلسفة لم يطرحوا أفكارهم بلغة سهلة سلسة يسهل على الغير قراءتها والتجوال في حقولها ، فبعث على أن تكون الفلسفة طلاسم لا يفكر أكثرُ الناس في الاقتراب منها لأنها مجموعة رموز وأسرار لا يتمكن من معرفتها إلا ذوو الاختصاص ممن قضى عمره في خوض لججها وبذل مهجته للوصول إلى عمقها وقعرها!

وسوف نحاول من خلال دراستنا لمادة الفكر الشرقي القديم أن نسلط الضوء على تاريخ الفلسفة والابجديات الاولى لها وذلك بطرح أهم ما ورد فيها من مسائل ، وخاصة الفلسفة الشرقية القديمة المتمثلة بالفلسفة العراقية والمصرية والهندية والصينية ، ولا نغفل في خضم ذلك كله تسليط الضوء بشكل موجز على الفلسفة الغربية القديمة لبيان بعض جوانبها ومقارنتها مع ما ندرسه في الفلسفة الشرقية باقسامها.

يعمد الغربيون عادة إلى تقسيم التاريخ الفلسفي بين شرقي و غربي ، الفلسفة الشرقية هي الفلسفة التي أنتجتها دول الشرق الأقصى بالأخص الهند و الصين و اليابان و هي فلسفات ذات طبيعة دينية روحانية أكثر منها عقلانية ، في حين يقسمون تاريخ

الفلسفة الغربية إلى فلسفة قديمة و إغريقية ، ثم فلسفة العصور الوسطى ثم الفلسفة الحديثة .

نتاجات الفلاسفة المسلمين تعتبر غالبا من وجهة النظر الغربية ناقلة للفلسفة الإغريقية و غير ذات إنتاج فعلي ، و قد استمرت هذه النظرة نتيجة ضعف الدراسات الأصيلة للكتابات الفلسفية العربية الإسلامية إلى أن شهد العالم العربي مؤخرا نهضة فلسفية مهمتها إعادة بناء النهضة على أساس التراث العربي و محاولة نقده ، أبرز هذه المحاولات بالنسبة للمغرب العربي: نقد العقل العربي لمحمد عابد الجابري و إصلاح العقل في الفلسفة الإسلامية لأبو يعرب المرزوقي ، وأبرزها بالنسبة للمشرق العربي: مشروع التراث والتجديد لـ حسن حنفي(مقدمة في علم الاستغراب-التراث والتجديد-من العقيدة إلى الثورة-من النقل إلى الإبداع-من النص إلى الواقع-الدين والثورة في مصر-..وغيرها من مؤلفاته)، والمشروع الهرمنيوطيقي ل نصر حامد أبو زيد

١- معنى الفكر

لازم التفكير وجود الإنسان منذ نعومة أظفاره إلى يومنا هذا ، وترك آثاراً مهمّة في حياته حيث خلق انعطافات وتحولات مهمّة في مسار حركته ، وطوَّر أسلوب تعامله مع محيطه على مختلف الميادين والصُعد.

وبهذا اختلفت حياة الإنسان المتطورة عن حياة الحيوان بقوالبها الجاهزة والجامدة ، فكم تجد الفارق واضحا بين بيوت الإنسان التي كانت في حدود الكهوف والمغارات والتي تطورت إلى عمارات ناطحات للسحاب ، وبين بيوت النحل السداسية ذات الأشكال الجامدة التي لم يكتب لها تغيير منذ أن وجد هذا الحيوان ولحد الآن.

ألفكر لغةً : **فكر المعجم :**مختار الصحاح

ف ك ر :التَّفَكُّر التأمل والاِفِكْرُ و الفِكْرةُ والمصدر الفَكْرُ بالفتح وبابه نصر و أفْكُر في الشيء وفَكَّر فيه بالتشديد و تَفَكَّر فيه بمعنى ورجل فِكّيرٌ بوزن سكيت كثير التفكر.

ب-الفكر أصطلاحاً : الفكر قديم من قدم الإنسان فهو ناتج من تفكيره وتراكم الأفكار والمعلومات عبر العصور والأزمان التاريخية المختلفة وتأثيرها في حياة الإنسان ومن ثم تطورها نتيجة تطور هذا الفكر في كافة جوانب

ولما كان الفكر يعتمد على محركه الأساسي إلا وهو الفلسفة التي بدأت بطرح التساؤلات عن وجود الإنسان والكون الذي يحويه ، فجاءت هذه التساؤلات لتخط الخطوات الأولى نحو نشوء الفلسفة وكانت البدايات مع الفلسفتين الفارسية واليونانية اللتين أنتجتا الآراء والنظريات الفلسفية الاولى ، ومنها ماحمل الانسان على التأمل والبحث في كيفية الوجود حتى توصل الى أسباب ودلائل أعتقد بصحتها لفترة من الزمان حتى ظهرت نتيجة التفكير والشك نظريات ودلائل تدحض السابقة ، وهكذا تفرع الفكر وأصبح أكثر تنوعاً .

ويمكن أن نعرف هو مجموعة العمليات العقلية الراقية التى يقوم بها الإنسان بهدف حل مشكلة ما أو موقف غامض .

– أساليب التفكير تختلف من فرد إلى آخر ومن بيئة إلى أخرى ومن عصر إلى عصر أخر . فطريقة تفكير الطفل لا تكون مثل : طريقة تفكير الرجل الناضج وكذلك الإنسان البدائى تختلف طريقة تفكيره عن الإنسان المتحضر ، ويمكن أن نبين ذلك من خلال مايلي :

أنواع أساليب التفكير

الأسلوب البدائي(الخرافى)	الأسلوب الديني

وهو الذي يقوم فيه الإنسان بإرجاع الظاهرة إلى علل غيبية لا يمكن التأكد من صحتها بالتجربة .	ويعتمد هذا الأسلوب على أن جميع مظاهر الطبيعة دليل على القدرة الإلهية وعظمة الله فى خلقه مما يزيد من إيمان المتدين .
وهو أسلوب بدائي وغير منطقى لا يعرف طبيعة المشكلة ولا الطريقة الصحيحة لحلها	وهو أسلوب إيماني يربط الأحداث بقدرة الله تعالى .
مثال : يفسر ظاهرة البرق والرعد بأنها دليل على غضب الآلهة ويجب تقديم القرابين لها حتى يأمن شرها .	**مثال:** يفسر ظاهرة البرق والرعد على أنها دليل على قدرة الله وعظمته .

الأسلوب الفلسفى	**الأسلوب العلمى**
هو الأسلوب الذى يتسم بالتأمل العقلى والتفسير الكلى الشامل واستخدام العقل فى حالة فهم وتفسير الظاهرة الطبيعية المحدودة فى ارتباطها بظواهر الوجود كله	هو الأسلوب الذى يحلل الظاهرة ليعرف الأسباب المادية المباشرة (القريبة) التى تؤدى إلى حدوثها وهو يستخدم الحواس والأجهزة ويجرى التجارب ليصل إلى القانون الذى يحكم الظاهرة

هو أسلوب تأملى عقلى شامل لكل ظواهر الوجود وهو تفسير منطقى	هو أسلوب تجريبى حسى يهتم بالظاهرة وحدها والقانون الذى يحكمها للاستفادة منه فى السيطرة عليها .
مثال : الفيلسوف إذا أراد تفسير ظاهرة البرق والرعد فهو يربطها بالوجود كله فهو يبحث عن العلل البعيدة التى تتحكم فى كل ظواهر الوجود .	**مثال :** العالم يفسر ظاهرة البرق بتقابل الموجات الكهربية مع بعضها فى الجو فينتج عن ذلك صوت هو الرعد أو ضوء وهو البرق

٢- معنى الفلسفة

الفلسفة لغويا مشتقة من الأصل اليوناني : فيلوصوفيا filosofia ، وهي كلمة مكونة من شقين فيلوس بمعنى حب (أو صداقة) وصوفيا بمعنى حكمة وهكذا تكون الفلسفة هي محبة الحكمة و يقال أن أول من صاغ العبارة هو فيتاغورس لكن المرجح عندنا أن سقراط هو من صاغ الكلمة، لما عرف على فيتاغورس من تعظيم للذات يتنافى مع وصف محب الحكمة، و ما يؤكد قولنا هذا ما قاله سقراط في محاورة فيدروس متحدثا عن الأدباء والخطباء والمشرعين المعاصرين له:

" لا يمكنني أن أسميهم حكماء، لأن هذا الإسم اسم عظيم يخص الله فقط، إن لقبهم الملائم و المعتدل هو محبو الحكمة أو فلاسفة" .

لكن هذا التعريف اللغوي لا يساعدنا في تحديد معنى الفلسفة خصوصا إذا علمنا أن الفلاسفة العرب كانوا يضعون الحكمة والحكيم مكان الفلسفة والفلاسفة وأن الحكيم

عندهم على إطلاقه هو أرسطو فنجد مثلا ان ابن رشد يقول ' الحكمة هي صاحبة الشريعة و أختها الرضيعة ' وهو يقصد بالحكمة الفلسفة طبعا، لكن ما نستفيده من هذا الاشتقاق اللغوي هو أن جوهر الفلسفة ليس امتلاك المعرفة بل حب المعرفة والبحث عنها إن الفلسفة، كما يقول سليم دولة، معناها أن يكون الانسان بسبيله إلى الحقيقة.

و هكذا فالاشتقاق اللغوي يضيء جانبا من الفلسفة أو بالأحرى يضيء جانبا من جوانبها، و لكنه غير كاف لإضاءة دلالتها، فيبقى السؤال "ما الفلسفة ؟" قائما. عند البحث في الكتب والموسوعات الفلسفية تلاحظ أن الدلالات والتعاريف كثيرة ومتنوعة وقد ينفي بعضها بعضا مما يعرقل مسيرة البحث عن تعريف جامع للفلسفة ومن التعريفات التي صادفتها نجد أن الفلسفة : " تفكير في التفكير" وهو تعريف يغطي فرعا من الفلسفة و ليس كل الفلسفة، و الفلسفة كما يقول شيشرون هي "فن الحياة"، و من تعريفات أرسطو أن الفلسفة هي المعرفة العقلية و العلم بالمعنى الأعم، كما نجد مقولة ديكارت الشهيرة الفلسفة كلها بمثابة شجرة جذورها الميتافيزيقا وجذعها الفيزياء و غصونها المتفرعة من هذا الجذع هي كل العلوم الأخرى، لكن إذا كانت هذه هي صورة الفلسفة قديما فإن مجالها أصبح يضيق مع تقدم العلوم و انفصالها عنها، و يقول هربرت سبنسر أنها المعرفة التامة التوحيد، نجد كذلك أن الفلسفة ضرب من التأمل المنظم المرتبط بالتجربة الذاتية للفرد، و على العكس من ذلك تجد من يقول أن الفلسفة ليست تأملا و لا تفكيرا و لا تواصلا بل هي إبداع المفاهيم، كما يقول دولوز و غثاري في كتابهما "ما الفلسفة ؟".

وهكذا نلاحظ أن التعاريف تختلف باختلاف الفلاسفة، ذلك لأن كل تعريف للفلسفة يفترض فلسفة ما. فلو أخذنا أفلاطون كمثال لوجدناه يقول أن الفلسفة هي معرفةالمُثُل أوالكلّيات الخالدة الكامنة وراء ظواهر الأشياء. ففلسفة أفلاطون تقوم على التمييز بين عالم المثل وعالم الأشياء و الكائنات، الأول عالم علوي مثالي و أزلي و الثاني عالم سفلي، مادي و فان، و لكل شيء في عالمنا المحسوس توجد صورة مثالية ومطلقة في عالم المثل، فالأحصنة مثلا كثيرة ومتنوعة في عالمنا وكل هذا التنوع والتعدد صادر عن صورة واحدة كاملة هي " مثال الحصان" و بما أن هذه الصور غير محسوسة فغاية الفيلسوف هي السعي لمعرفتها بواسطة العقل، للتعرف بشكل أكبر على أفلاطون يمكنك زيارة مقال عنه بالضغط على أفلاطون، هدفنا هنا يقتصر على إيضاح أن كل تعريف للفلسفة يعكس فلسفة صاحبه، و كمثال آخر يمكن أن نأخذ ابن رشد الذي يقول أن " فعل التفلسف ليس شيئا أكثر من النظر في الموجودات و اعتبارها من جهة دلالتها على الصانع" فالفلسفة عنده هي أعمال العقل في الموجودات للإستدلال على الخالق، و هذه المقولة تعكس بشكل واضح انشغال بن رشد بتبيان انعدام التعارض بين الحكمة و الشريعة أو بين الفلسفة و الدين.

وهذا يؤكد، مرة أخرى، ما سبق وقلناه من كون كل تعريف للفلسفة يعكس أو يفترض فلسفة ما وهذا بسبب كون الفلسفة خاضعة للزمان و المكان فهي ليست متعالية عن التاريخ والفلاسفة كغيرهم يتأثرون وينفعلون بالمجتمع، لذلك يجب أن نتخلص من تلك النظرة الخارجية للفلسفة التي تقوم على فصل الفلاسفة عن ظروفهم، وأزمنتهم وعلى السعي وراء جمع حشد من تعاريف الفلسفةتُجتث من مذاهبها بصورة جزافية، إن سؤال ما الفلسفة بألف و لام التعريف يفترض العثور على تعريف جامع مانع للفلسفة و هذا يوقعنا في وثوقية القول الواحد والإيمان بالرأي الوحيد مما يخالف طبيعة الفلسفة التي أشرنا إليها في البداية، ولا يمكن التخلص من هذه الإشكالية كما يقول سليم دولة في كتابه "ما الفلسفة؟" إلا بتجريده من ألف ولام التعريف فنتخلص من وهم البحث عن سراب تعريف ماهوي للفلسفة، تعريف شامل للفكر الفلسفي، وبذلك نقتنع أن كل تعريف لا يكون إلا نسبيا ينطبق على فلسفة فيلسوف بعينه.

من أجل الوصول الى معنى الفلسفة لابد من ذكر أقرب تعريف للواقع :

جاءت كلمة الفلسفة من عبارة «فيلاسوفوس»أَي محبّ الحكمة ، وهو اسم اختاره سقراط لنفسه؛ وقد نقل مورّخو الفلسفة أن السبب في اختيار هذا الاسم شيئان : أحدهما : تواضع سقراط حيث كان يعترف دائماً بجهله ، والثاني : تعريضه بالسوفسطائيين الذين كانوا يعدُّون أنفسهم حكماء ؛ أي إنه باختيار هذا اللقب أراد أن يوحي لهم ، بأنكم لستم أهلاً لهذا الاسم «الحكيم» ؛ لأنكم تستخدمون التعليم والتعلم لأهداف مادية وسياسية ، وحتى أنا الذي استطعت ردَّ تخيلاتكم بأدلة محكمة ، لا أرى نفسي أهلاً لهذا اللقب ، وإنما أطلق على نفسي اِسم «محبّ الحكمة».

وفي العهد الإغريقي القديم ومنذ أن سَمّى سقراط نفسه بهذا الاسم ، صارت الفلسفة قديماً تستعمل في مقابل السفسطة المنكرة بأساليب مغالطاتها لحقائق الأشياء ، كما إنها صارت شاملة لجميع العلوم الحقيقية كالفيزياء ، والكيمياء ، والطب ، والهيئة ، والرياضيات والإلهيات؛ وأما العلوم الاعتبارية كالنحو و الصرف فهي خارجة عن حيز الفلسفة(١)وبناءً على ما تقدم فإن الفلسفة قديماً كانت اسماً عاماً وشاملاً لقسمين رئيسيين من العلوم ، النظرية والعملية ، وبذلك فإن الفلسفة تنقسم إلى فلسفة نظرية ، وتشمل تحت عنوانها ما ينبغي أن يعلم من المعارف كالرياضيات والطبيعيات والإلهيات. وإلى فلسفة عملية ، وتشمل تحت عنوانها ما ينبغي أن يُعمل به من المعارف كالأخلاق وتدبير المنزل والسياسة.

---

(١) تختلف العلوم الاعتبارية عن العلوم الحقيقية في أن العلوم الاعتبارية لا واقع لها سوى ما اتفق عليه المتفقون واعتبره المعتبرون ، كما لو اتفق النحاة في لغة العرب أن يكون الفاعل مرفوعاً والمفعول به منصوباً . فلا وجود لأمثال هذه الأحكام في الواقع غير ما اتفق عليه المتفقون واعتبره المعتبرون وعلى خلاف ذلك ، حال العلوم الحقيقية ، فإنها تكشف عن حقائق ثابتة سواء علم الإنسان بها أم لم يعلم؛ فالجاذبية كانت موجودة ولها واقع ثابت ولم يكن لنيوتن من دور ، سوى الكشف عنها.

ولا بد لنا من المرور بأشهر التعريفات التي عرفت بها الفلسفة وهي :

التعريف الأول :

{ هى علم المعرفة الكلية المطلوبة لذاتها }

الفلسفة ليست علم جزئى مثل بقية العلوم وا ٍنما هى علم العلوم لأنها تدرس الحقيقة الكلية للموجودات عامة .

و الفلسفة تهتم بكل ما يثيره العقل من مشاكل كلية تنصب على الوجود كله فى صورته العقلية الشاملة

مثل : طبيعة الوجود وماهية الإنسان وغيرها من المشكلات ذات الطابع العقلي الكلى **لذلك تعتبر الفلسفة علم المعرفة الكلية .**

و الفيلسوف عند دراسته للحقائق الكلية المتفرقة للوجود فإنه

يجمعها مع بعضها – ويجردها من ماديتها – ثم يربطها فى تسلسل منطقى ليكون منها مذهب فلسفي خاص به يفسر من خلاله مختلف ظواهر الوجود تفسير عقلي متناسق .

التعريف الثانى :

{ هى علم المبادئ الأولى ظواهر الوجود. }

فإن هدف الفيلسوف إدراك **المبادئ الأولى والعلل البعيدة** لأنها بطبيعتها عقلية مجردة وهو يستخدم التأمل العقلي

و لا يقتنع بقبول العلل القريبة . لأنها مادية تحتاج إلى الحواس والمنهج التجريبي

مثال : أن الفيلسوف لا يكتفي بمعرفة أن السبب المباشر لنمو النبات هو توافر الماء والهواء والشمس باعتبار ها العلل القريبة لنمو النبات ولكنه يريد أن يرتقى إلى أعلى من ذلك ليعرف نمو كل الكائنات الحية الأخرى .

التعريف الثالث :

{ هى وجهة نظر عقلية تجاه موقف ما أو ظاهرة معينة فى حياة الإنسان }

ووجهة النظر هذه عادة ما تكون نابعة من خبرات الفرد وظروف حياته وقد تؤثر فى سلوك صاحبها إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .

مثال : قد يتناول فيلسوف **ظاهرة الخير والشر عند الإنسان** ٠ ويفسرها حسبوجهة نظر ه مدعما ر أيه بالأدلة العقلية الممكنة ثم يأتي فيلسوف آخر ويفسرها بطريقة أخرىوأيضا يدعم ر أيه بالأدلة العقلية فكل منهما تأثر بخبرات حياته الخاصة وظروف مجتمعة ٠

وإليك مخططاً بيانياً للفلسفة وأقسامها المتفرعة عنها :

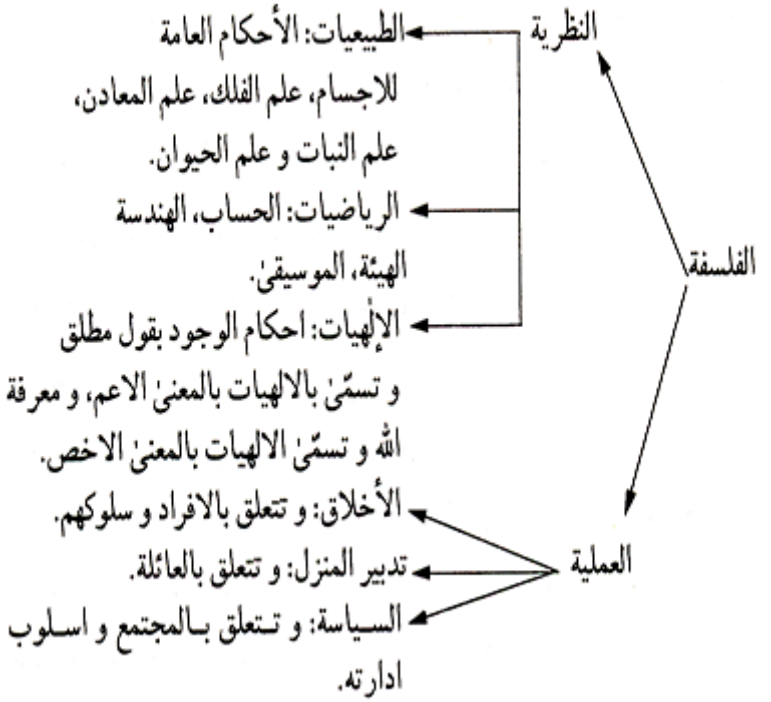

بَيْدَ أن الفيلسوف لم يتمكن من مواكبة تطور العلوم واتساع رقعتها واستيعاب مسائلها وفروعها ، فبعث ذلك على انحسار دوره وتقلص نشاطه في حدود بحث الإلهيات بالمعنى الأعم والأخص وتسمى بالعلم الكلي والفلسفة الأولى[1] ؛ والأعم منها يبحث عن أحكام الموجودات بشكل عام ولا يختص بموجود دون آخر بينما تتناول الإلهيات بالمعنى الأخص إثبات وجود الله الأقدس وصفاته جل وعلا.

موضوع الفلسفة :

وبذلك يتضح أن موضوع علم الفلسفة هو : «الموجود بما هو موجود» ، أي أنها تتناول دراسة الموجود بشكل عام ، لتحدد أحكامه بغض النظر عن خصوصياته. فمثلاً :إن البحث عن العلّة والمعلول لا يختص بموجود دون غيره ، بل هو شامل لكل موجود؛ بينما البحث عن تركيب الماء ودرجة انجماده وغليانه وبقية خواصه ،

([1])والوجه في تميتها بهذا الاسم ، هو أنها تُعدّ في مقدمة كل العلوم؛ إذ أنها تبحث عن وجود الله الأقدس وصفاته الحسنى ، كما أنها تقوم بإثبات موضوعات العلوم ، فما لم يثبت في الفلسفة الوجود المادي الخارج عن حدود الذهن لا يتسنى للفيزيائي أن يبحث عن خواص الأجسام ، ولا للكيمياوي أن يبحث عن طبيعة تفاعلات العناصر وهكذا. بل إن جميع العلوم مدينة إلى الفلسفة في مبادئها التصديقية ، كمبدأ عدم التناقض وأصل العلية وقاعدة الانسجام ، وهي من مباحث ومسائل الفلسفة ، ومن أجل ما تقدم يكون للفلسفة ، شرف التقدم على بقية العلوم ، ولا نبالغ إن قلنا أنها أم العلوم.

بحث عن الموجود بما هو ما له وجوده الخاص. وأما الإلهيات بالمعنى الأخص فإنها تبحث عن وجود الله تعالى وصفاته وتختص به ولا تبحث عما سواها.

ودراسة الموجود بشكل عام التي تتناول الموجودات مجردها وماديها ، يُطلق عليها اسم «الميتافيزيقا» وقد تصور البعض خطأ ، أنها تختص بالموجودات المجردة غير المادية ، إلا أن الصحيح شمولها للموجودات المادية والمجردة على حد سواء. فالبحث عن العلة والمعلول ، والوجوب والإمكان ، والحادث والقديم ، والقوة والفعل وما شابهها لا يختص بالموجودات المجردة غير المادية بل يشملهما معاً .
ومن الجدير ذكره أن الميتافيزيقا مأخوذة من أصل يوناني هو متاتافوسيكا أي ما بعد الطبيعة وحوِّرت بالعربية إلى (ميتافيزيقا) وحسبما يعتقده مؤرخو الفلسفة ، فإن هذه الكلمة استعملت لأول مرة في قسم من فلسفة أرسطو المتناولة لأحكام الوجود بشكل عام ، وحيث أن هذا القسم من بحث الفلسفة قد كتبه أرسطو حسب ترتيبه بعد بحث الطبيعيات ، لذلك فقد أطلق عليه اسم ميتافيزيقا ، أي ما بعد الطبيعة.

والفكر الفلسفي الذي أثارته وأفرزته تساؤلات الإنسان عن الكون والحياة ، والمبدأ والمعاد ، كان أحد المحاور الفكرية التي استقطب اهتمام البشر من لدن آدم ولحدِّ الآن ، ودفعه صوب التأمل والنظر ، ومن ثم نحو الإبداع والابتكار في هذا المجال ، وقد كان لحكماء الفرس واليونان قصب السبق في ذلك على بقية الأمم وكان ذلك قبل الميلاد بعدة قرون حيث طفحت على سطح مناظراتهم وتأملاتهم الفلسفية العديد من الآراء والنظريات ، التي كان يسودها الاتزان تارة والتهافت والتضارب تارة أخرى ، وفي ذات الوقت النمو والثراء بفعل التلاقح الفكري الحر الذي وفّرَ أجواء خصبة لذلك.

٣- التمييز بين الفكر والفلسفة

في البدء لابد من طرح التساؤلات التالية : ١-متى بدأ التفكير الإنساني؟ وبماذا يختلف الإنسان عن الحيوان في تغيير وتطوير محيطه الذي يعيش فيه؟ و٢- ما هو الباعث من وراء نشوء الفكر الفلسفي؟ ومن كان من بين الحكماء له قصب السبق في ذلك؟ ومتى؟ تراود الإنسان أحياناً وقد تلاحقه تساؤلات حول الوجود ومعناه؛ وهل هو متناه محدود أو مطلق لا محدود؟ وكيف وجد وهل هو في غنى عن علةٍ توجده أو مفتقر إليها؟ وهل لله خالق أو هو في غنى عن كل خالق؟ ولماذا لا يُرى الله جهرة؟!

ومن جهة أخرى فإن الإنسان ، هذا الموجود العملاق الذي حَلَّق في آفاق السماء ونفذ إلى أعماق الأرض وقعر المحيطات وفلق الذرة وابتكر العجيب والغريب ، تراه

حائراً يعيش الضياع والسأم؛ إذ لا هدفَ حقيقي يصبو إليه ولا رؤية كونية واضحة يمتلكها إزاء الوجود ولا شمولية ولا انسجاماً يلمسه بين مفردات الكون وفصوله ، ومن أجل ذلك فإنه لا يعرف لماذا وضع قدميه في هذا العالم؟ ولماذا يُفرض عليه الخروج منه مرة أخرى؟ ولماذا تكون الحياة جميلة إبان الطفولة والشباب ، ثم تغدو رذيلة منغصة عند الشيخوخة وأرذل العمر؟!

ومن هنا فنحن بحاجة إلى ما يخفف قلقنا وينزع سأمنا ويبدل ضياعنا وضلالنا إلى هدى ونور ورَوْح وراحة ، والفلسفة تؤدي هذا الدور؛ لأنها تعطي لكل ما تقدم من تساؤلات ، إجابات مُبيَّنة وذلك بتحديد رؤية كونية واضحة عن الكون والوجود والحياة ، لتتحدد لنا معالم المبدأ والمنتهى والسبيل بينهما. وبعبارة أخرى : إن الفلسفة تميط اللثام عن التوحيد والمعاد ، والنبوة التي تُعد سَبيلاً للوصول إلى شاطئ المعاد بأمان بما تتضمنه من شرائع ومناهج وأحكام ، فلا يغدو وجود الإنسان عبثاً ولا يُمسي كريشةٍ في مَهب الريح ، بل يعرف نفسه ويعرف أنه من أين وفي أين وإلى أين.

وإذا كان دور الفلسفة الكشف عن المجاهيل ، وانتشال الإنسان من حالات الإبهام والضياع بحل شبهاته في ما يرتبط بأصل الوجود ومآله وحقيقته ، فلا نبالغ إن أطلقنا اسم العلم عليها؛ لأن العلم يقوم بتسليط أضوائهِ الكاشفة على ظلمات المجاهيل ليُسفر عن هويتها وحقيقتها ، وهذا بالضبط ماتؤديه الفلسفة لقرّائها ودارسيها.

نعم ، إن أُريد من العلم حَصيلة الأفكار والنتائج التجريبية التي يتوصل إليها الإنسان في مختبره أو في مجال الطبيعة ، فلا يصح حينئذٍ إطلاق اسم العلم على الفلسفة بهذا المعنى ، بل وكذلك لا تصح تسمية كهذهِ على التأريخ والجغرافيا ، والفقه وبقية العلوم الإنسانية غير التجريبية.

٤ـ أسباب التفكير عند القدماء ودوافعه

التّفكير الذي فسّر به الإنسان البدائي سلوكه، هو الذي اعتمد عليه في تفسير الطبيعة من حوله، فنسب إلى الطبيعة الجامدة أرواحا كروحه هو، وعزا أفعالها وظواهرها إلى إرادة خفية يتصوّرها على نحو ما يتصوّر إرادته هو، إرادة تعمل بحرية ذاتية دون تقيد بقانون أو نظام. ودون خضوع لمنطق العلل أو الأسباب.

لقد وجد الإنسان البدائي نفسه أمام عديد من الظواهر الطبيعية. كانت هذه الظواهر أكبر منه قوّة وأشد منه بأسا، وليحمي نفسه من غائلة هذه الظواهر اتجه نحو معرفة كنهها، وأن يجد لحوادثها تفسيرا. ولكن تفسير الإنسان البدائي لم يكن تفسيرا علميا بالطبع، ذلك أنه كان قاصرا محدود الخبرة ولذلك جاء تفكيره خياليا خرافيا. والإشكالية المطروحة هي كيف أنالتّفكير العلمي ؟ وكيف تطور هذا التّفكير؟ كيف انتقل الإنسان من معرفة ساذجة إلى معرفة علميّة ؟ أي من تفسير الحوادث الطبيعية بنسبها إلى علل غيبيّة كما كان سائدا في القديم. لقد نسب الإنسان البدائي عدة ظواهر إلى آلهة مثل إنساب البرق إلى إله، والمطر إلى إله آخر، بينما نجدإن المعرفة العلميّة تفسر الظواهر الطبيعية بالظواهر الطبيعية.

حسب أوغوست كونت، المعرفة العلميّة تمثل نضج العقل الإنساني، نضج اكتسبه عبر تاريخ طويل، لقد عبَرت الإنسانية ثلاث حالات من التّفكير نظرا لمرورها بثلاث مراحل :

الأولى : – الحالة اللاّهوتية : تمتد من العصور القديمة حتى القرن (٠٤) ميلادي، وفيها كان الإنسان يفسر الظواهر الطبيعية بقوة غيبية مفارقة للطبيعة كالآلهة مثل إله الشمس وإله البحر وإله الرعد وغيرها.

الثانية : – الحالة الماورائية : تمتد من القرن الرابع الميلادي إلى الثورة الفرنسية، وفيها كان الإنسان ينسب الظواهر الطبيعية إلى قوى غيبية محايثة للطبيعة لا تراها العين المجرّدة، والطابع العام لهذا التّفكير أنه يؤمن بوجود أرواح للظواهر الطبيعية.

الثالثة : – الحالة الوضعية : تمتد من الثورة الفرنسية حتى الآن، و فيها توصل الإنسان إلى تفسير الظواهر الطبيعية بمثيلتها، أي التّفكير العلمي، واعتبر أوغوست كونت أن هذه المراحل متعاقبة في الزمان، إنها متّصلة بحيث أن نهاية والأولى تولّد بداية الثانية ونهاية الثانية تولّد بداية الثالثة.

٥- هل يرتقي الفكر عندهم الى الفلسفة

يكاد يعتقد الرأي على أن الشرق القديم قد سبق اليونان الى ابتداع حضارات مزدهرة يانعة ، تقوم على علوم عملية ناضجة ، ودراسات نظرية دينية قيمة ؛ فأما عن العلوم العملية فحسبنا أن نشير الى أن قدماء المصريين كانوا أو من أبتدع الرياضيات و اخترع الميكانيكا ، وابتكر الكيمياء و أنشأ علم الطب ، وأول من أخترع الكتابة و أقام المكتبات ودور الكتب ، وأن البابليين و الكلدانيين كانوا أو من درس أجرام السماء و أنشأ علم الفلك ..... ومثل هذا يقال في سائر شعوب الشرق القديم من حيث سبقها للغرب الأوربي القديم في مجالات البحث العلمي التجريبي .

أما عن التفكير النظري الديني فمن دلالات سبق الشرق للغرب في مجالاته ما خلفه لنا قدماء الشرقيين من وجوه النظر العقلي في الإلوهية و البعث ، والخير والشر ، والمبدأ و الضمير ... وغير هذا من مجالات توصلوا بصددها الى آراء تردد صداها بعد ذلك عند القدامى من فلاسفة اليونان ، ومنذ أكثر من ثلاثة وثلاثين قرناً من الزمان توصل في مصر القديمة (أمنحوتب الرابع المعروف باسم اخناتون) الى وحدانية الله مع شيوع الشرك الوثني في عصره ، وتوصلت (الزرادشتية) الفارسية الى الثنائية Dualism التي أرتد فيها العالم الى إله للخير و إله للشر ، أو مبدأ للحياة ومبدأ للموت ، كما عرف الهنود منذ أقدم العصور حلول الله في مخلوقاته .... الى آخر ما يمكن ذكره في هذا الصدد وكثير من فلاسفة اليونان الذين قيل أن الفلسفة قد نشأت على يدهم . كطاليس و فيثاغورس وديمقريطس . قد أموا بلاد الشرق القديم ، و اتصلوا بثقافاتهم ونهلوا من معينها . باتفاق بين المؤرخين .

ولكن جمهرة المحدثين من مؤرخي الفلسفة الغربيين . مع اعترافهم بسبق الشرق القديم الى ابتداع الحضارات ، وتأثر اليونان بتراث حكمائه . متفقون على أن الفلسفة اليونانية خلق عبقري أصيل جاء على غير مثال ! ومن دلالاتهم على هذا أن من أخص ما كان يميز التفكير الفلسفي اليوناني : التماس المعرفة لذاتها ، بمعنى أن يتجه العقل الى كشف الحقيقة يباعث من اللذة العقلية ، ومن غير أن تدفعه الى ذلك أغراض عملية أو غايات دينية ، وهذا النوع من المعرفة النزيهة قد نشأ لأول مرة في ظل اليونان وعاش في كنفهم ، بحثوا في الوجود لمعرفة أصله ومصيره ، وتأملوا موجوداته وما يعروها من صنوف التغير ، بدافع من الرغبة النزيهة في طلب

المعرفة ، ومن غير أن تسوقهم إليها ضرورة ملحة ؛ أما الشرق القديم فقد التمس المعرفة ليسد بها حاجة عملية ، أو يشبع بها عقيدة دينية ، والى هذين النبعين ترجع معلوماته التجريبية وتأملاته العقلية .

قالوا أن المصريين قد استخدموا الرياضيات في مسح الأرض وشق الترع وغيرها من أغراض عملية ، واستعانوا بها وبالميكانيكا على أقامة الأهرامات ، التي ما زالت تتحدى الزمن ، أقاموا لحفظ الجثث المحنطة اعتقاداً منهم في خلود النفس وحساب اليوم الآخر ؛ وتوسلوا بعلم الكيمياء في تحنيط الجثث واستخراج العطور و الأصباغ والألوان وغير هذا من أغراض دينية ؛ ولكن اليونان هم الذين أنشأوا هذه العلوم في صورتها النظرية الخالصة و تجاوزوا في الر ياضيات مرحلة الأمثلة الفردية المحسوسة الى مرحلة التعاريف و البراهين فتوصلوا الى القوانين والنظريات التي تستند الى البرهان العقلي .

وكذلك كان الحان في علم الميكانيكا النظري ، كان اليونان . فيما يقول جمهرة الغربيين من المؤرخين . أول من عالج دراساته بروح علمية ، إذ كان لأرسطوا الفضل في إنشاء هذا العلم النظري ة إن أخطأه التوفيق في صيغة عباراته ، وأكمل السكندريون من أمثال أرشميدس ٢١٢ ق.م ممن "قننوا" المعلومات الميكانيكية لأول مرة في تاريخ العلم .

وكان البابليون والكلدانيون قد سبقوا الى مشاهدة الكواكب ور صدها ، فأنشأوا بهذا علم الفلك العملي ولكنهم كانوا مسوقين بأغراض تنجيمية أو عملية (كمعرفة فصول الزراعة ومواسم التجارة ونحوها) ، أما اليونان فهم الذين أقاموا علم الفلك النظري ؛ رصدوا الكواكب لمعرفة " القوانين " ووضع " النظريات " التي تفسر سيرها وتعلل ظهورها واختفاءها ، ويرجع الفضل الأكبر في هذا الى بطلميوس السكندري (في القرن الثاني) بكتابه " المجسطي " الذي ظل المرجع الرئيسي في علم الفلك حتى مطلع العصر الحديث .

ومثل هذا يقال في العلوم التي أدت إليها في الشرق القديم بواعث دينية ، أو أغراض عملية ، عالجها اليونان بروح علمية حتى نشأت علوما نظرية تستند الى البرهان العقلي ، وتقوم على "تقنين" المعلومات بغير باعث ديني أو عملي .

هذا عن العلم التجريبي ومناهجه بوجه عام ، أما عن التفكير النظري المجرد فيقال أن حكماء الشرق القديم قد أرادوا به إصلاح الدين ، والنجاة من الشر ، ومن ثم كان النظر العقلي عندهم وسيلة وليس غاية في ذاته كما كان حاله عند اليونان ، وامتزج في مناهج بحثهم الاستدلال العقلي بالخيال و البداهة ، واختلط في تفكيرهم الدين بالفلسفة ، بل كان تفكيرهم في هذه المجالات وليد معتقداتهم الدينية ، فلم يجردوا الفلسفة من الدين ويعالجوا موضوعاتها لذاتها ، ومن هنا كان عجزهم عن وضع مذاهب تجمل الحقائق التي يتوصلون إليها بالبرهان العقلي ، ومن أجل هذا جاهر مؤرخوا الغرب بأن الشرق وأن أنشأ الحضارات الإنسانية الأولى ، فإن العلم والفلسفة بمعناها النظري من ابتداع اليونان ؛ يقول شيخ الفلاسفة المعاصرين (برتزندرسل) ١٩٧١ في مطلع كتابه الضخم عن " تاريخ الفلسفة الغربية " إن اليونان . وليس قدماء الشرقيين . هم الذين (أنشأوا الرياضة وابتدعوا العلم الطبيعي وابتكروا الفلسفة) ، في مطلع القرن السادس قبل ميلاد المسيح ، كان مولد العلم و الفلسفة اللذين كانا . في ذلك الوقت . ممتزجين ، ولم ينفصل أحدهما عن الآخر ، والى مثل هذا ذهب أساطين مؤرخي الفلسفة من أمثال " تسلر " ، عرضوا للرأي الذي شاع منذ الماضي السحيق ورد الكثير من مذاهب الفلسفة الإغريقية الى بلاد الشرق القديم ، وقالوا أن رأيا شاع منذ القرن الثالث قبل ميلاد المسيح . لعل الشرقيين أول من اخترعوه ثم تبناه اليونان بعد ذلك . وخلاصته أن الفلسفة اليونانية . أو معظم مذاهبها الشائعة على أقل تقدير . قد هاجرت من الشرق القديم الى بلاد اليونان .... وهم يعترفون بأن اليونان مدينون للشرق بالكثير من النظم الدينية والأخلاقية و المعلومات الفلكية و الرياضية ، ولكنهم يرون أن الفلسفة اليونانية ومناهجها كانت خلقاً عبقرياً أصيلاً جاء على غير مثال ، ولم ينشأ قط عن حكمة الشرق القديم ، وهذه هي المعجزة اليونانية فيما يقول أمثال " هنري بير " ، وقد سفهوا الاعتماد على التشابه في وجهات النظر بين الشرقيين و اليونان لتبرير الحكم بأخذ اللاحق عن السابق ،لأن الشعوب الشرقية وا ِن كان لها أساطيرها وقصصها الديني عن بدء الخلق ونحوه من موضوعات فلسفية ، كانت جميعها على جهل بالتفلسف والتأمل في الوجود لمعرفة طبيعته و الوقوف على كنه موجوداته ،بالإضافة الى أن الفلسفة اليونانية وأن كانت تحمل طابعاً قومياً ملحوظاً ،إلا أنها كانت في مذاهبها الرئيسية لا تستوحي ديناً ، ولا تستفتي عرفا ، ولا تقيم لغير منطقها وزناً ، على عكس الحال في حكمة الشرق القديم ، إذ لم يقدر لها قط أن تستقل عن الدين وتستغني عن وحيه ، وقد كان " أرسطوا " . وهو أقدم شاهد يجوز الاعتماد عليه . يقرر أن

المصريين هم أول من ابتدع العلوم الرياضية . بمعناها العملي . ولكنه . مع دقته في تتبع مذاهب القدماء في تراث الفلاسفة الأولين . لا يشير قط الى فلاسفة مصريين أو شرقيين ... الى آخر ما يقوله في هذا الصدد جمهرة المؤرخين من الغربيين .

هكذا قالوا أن اليونان قد أفادوا من تراث الشرق القديم في الفنون و العلوم العملية ، فأعانهم هذا على أن يفرغوا للبحث النظري النزيه في حقيقة الموجودات وماهيتها ، بحثا قوامه التحليل المنطقي و الترابط العلي و البرهان العقلي ؛ ساعدهم على هذا اعترافهم بنظام الرق ، واعتقادهم بأن العبيد وظيفتهم القيام بالعمل اليدوي ، ومهمة السادة أن يتفرغوا للبحث النظري المجرد ، أليس يقول أرسطو أن الأشغال بالعلم يتطلب الفراغ ... ؟ هكذا كانت نشأة الفلسفة بمعناها التقليدي على يدهم .

إذا كان هذا هو الرأي الشائع عند جمهرة الغربيين من مؤرخي الفلسفة ، فأن الشرق لم يعدم منصفين من الغربيين أنفسهم يقولون بغير ذلك ، وحسبنا أن نشهد بثلاثة من أعلام المعاصرين من هؤلاء ، وهم ول ديورنت سيد مؤرخي الحضارات (في أمريكا) وبول ماسون أورسيل أستاذ الفلسفة الشرقية ومدير معهد الدراسات العليا في باريس .

فأما أولهم وهو " ول ديورنت " فيقول في معرض حديثه عن الفلسفة المصرية أن مؤرخي الفلسفة من الغربيين قد جرت عادتهم على أن يردوا نشأة الفلسفة الى اليونان ، وأن الهنود الذين يرون أنهم أبدعوا الفلسفة ، والصينيين الذين يرون أنهم سموا بها حد الكمال ، يسخرون من تعصب الغربيين وضيق تفكيرهم ، ولعل هؤلاء جميعاً مخطئون ، فأن في تراث المصريين كتابات قديمة تتصل بالفلسفة الخلقية من بعيد ، بل أن حكمة مصر القديمة كانت مضرب الأمثال من اليونان الذين اعتقدوا أنهم أطفال الى جانب حكماء هذا الشعب القديم (قارن أفلاطون في محاورة طيماوس) ، بل أن أقدم ما يعرف من المؤلفات الفلسفية تتضمنه " تعاليم بتاح حوتب " وهي ترتد الى ثمانية و أربعين قرناً من الزمان (أي قبل عصر كونفوشيوس و سقراط وبوذا بثلاثة وعشرين قرنا) !

بل جاهر " ديورنت " بأن الغربيين الذين يزعمون خطأ أن ثقافة اليونان كانت المعين الوحيد الذي نهل منه العقل الحديث ، ستتولاهم الدهشة إذا عرفوا الى أي حد تدين علوم الغرب و آدابه وفلسفاته و ... لتراث مصر وبلاد الشرق ... الى آخر ما يقوله في هذا الصدد .

أما " سارتون " فيقول في معرض تأريخه للعلاقات العلمية بين الشرق و الغرب : (إن نور العلم قد انبثق من الشرق ، وما من شك في أن معارفنا العلمية القديمة . نحن الغربيين . مهما يكن أمرها فأنها ترتد أصلاً الى الشرق وإذا كنا لا نستطيع أن نقول الكثير بصورة محددة عن الأصول الصينية و الهندية التي صدر عنها علم الغرب ، فإننا على العكس نستطيع بيقين و تحديد دقيق أن نتحدر بأصوله الى تراث ما بين النهرين ومصر ...

ويمضي سارتون في الحديث حتى يتصدى لمناقشة عبقرية اليونان العلمية ، ويعرض لما سماه مؤرخو الغرب بالمعجزة اليونانية ويقول أن حديث الغربيين عن المعجزة اليونانية لا يعدو أن يكون اعترافاً بجهلهم بحقيقتها وتسليماً منهم بهذا الجهل ... ويمضى سارتون في حديثه حتى يقول في صراحة : إن العلم اليوناني يقوم كلية على أسس من تراث الشرق ، وبالغة ما بلغت اليونانية من عمق ، فإن من المؤكد أنه ما كان يمكن أن تحقق كشوفاتها العلمية المعجزة بغير هذه الأصول الشرقية ، ومن ثم فليس من حق الغربيين أن يستبعدوا الأب و الأم اللذين نشأت عنهما هذه العبقرية اليونانية ، أما الأب فهو التراث المصري القديم ، وأما الأم فهي ذخيرة بلاد ما بين النهرين .

أما ثالث الأعلام الذين أدت دراساتهم العميقة لتراث الشرق القديم الى أنصافه وتقدير ميراث الغرب منه فهو (ماسون أورسيل) الذي أكد مع من تابعوه في اتجاهه أن البحث العلمي في تراث الشرق القديم والكشف عن كنوزه المخبأة لا يزال حديث عهد ، وقد يكشف المستقبل من آياته ما يغير نظرتنا لتراثه ، وفي تعاون الباحثين من علماء التاريخ و الاجتماع و اللغة والآثار ونحوها على التنقيب عن تراث الشرق ما يبشر بالكشف عن كنوز من النظر العقلي الشامل عن الهنود والمصريين والصينيين و الفرس ،وينذر بوضع التراث الشرقي في مكانه اللائق من تراث العقل البشري بوجه عام ، وقد انتهى بعض الباحثين الى أن من الضلال أن تقطع كل صلة تربط اليونان بأساتذتهم في الشرق القديم ، حقيقة لم يعرف لفظ الفلسفة ومدلولها التقليدي إلا عند الإغريق ومن أعقبهم من أهل أوربا ، جهلته الهند و الصين ومصر وغيرها من بلاد الشرق ،

ولكن من السذاجة اليوم أن يظن أن الفلسفة اليونانية كلها كانت نتيجة محتومة وتطوراً منطقياً للعبقرية اليونانية وحدها فيما يقول الأستاذ أميل برييه أستاذ الفلسفة بجامعة باريس .

وتضييق معنى الفلسفة هو الذي حال دون اطلاقها على حكمة الشرق القديم ، ولو أتسع مدلولها حتى شمل الحياة العقلية و الروحية لانحدرنا بنشأتها الى شعوب الشرق القديم ؛ وهذا ما فعله الأستاذ "ماسون أورسيل" الذي يقول أن ليس ثمة اليوم إنسان يعتقد أن اليونان و الرومان وشعوب أوروبا في عصورها الوسطى و الحديثة هم وحدهم أهل التفكير الفلسفي ، فإن في مناطق أخرى من البشرية قد سطعت أنوار التفكير المجرد وتلألأت في وضوح ... ولا يطعن في هذا أن يقال أن الحياة العقلية عند الشرقيين كان أوثق اتصالاً بحياتهم الدينية منها بالتفكير الفلسفي الخالص ، فقد امتزج التفكير الفلسفي بالتفكير الديني في شتى عصور الإنسانية حتى ليمكن القول بأن كل محاولة تهدف الى الفصل التام بينهما ، تنتهي لا محالة الى العجز عن فهم كليهما !

ومرجع الخطأ الى افتراض تقابل بين الشرق و الغرب . أو آسيا و أوربا بتعبير أدق ، وتوحي المصورات الجغرافية بهذا الوهم في أذهان الناس ، مع أن فهم نتاج العقل اليوناني يتطلب وضع تراثه في وسط إنساني واسع ، ويقتضي أن نقيم العلاقات بينه وبين ما سبقه من وجوه النظر العقلي عند حكماء الشرق القديم ، وعندئذ يزول التقابل بين الشرق و الغرب ، ولا يصبح أمامنا إلا تراث نبت في أوراسيا التي تجمع بين أوربا و آسيا في سمط واحد .

أما رد الشعوب الى أجناس تتفاوت بطبيعتها في القدرة على النظر العقلي المجرد و ابداع المذاهب الفلسفية كما ذهب أمثال أرنست رنان١٨٩٢ و كرستيان لاسن ١٨٧٦ ، فهو من الخواطر التي أملاها التعصب الجنسي أو الديني أو هما معاً ، وقد فند الكثيرون من الباحثين هذا الزعم فلا حاجة بنا الى إطالة الحديث فيه .

أن التفكير الغربي كان دائماً يعيش في محيط عقلي يتصل بالعالم بأسره ، فإذا عزلناه عن العالم أسأنا فهمه ، وهو في مده وجزره أنما يفسر في ضوء أسباب مشتركة في " أوراسيا " كلها .

هذه وجهة نظر ذهب إليها بعض المعاصرين من الباحثين الغربيين ، ولكن جمهرة مؤرخي الفلسفة . من هؤلاء الغربيين . لا يرحبون بهذا الاتجاه في فهم الفلسفة وتصور معناها وتحديد

نشأتها ، لأنهم يضيقون مدلولها حتى يتعذر إطلاقه على حكمة الشرق القديم ، وتتقيد نشأته بفلسفة اليونان.

ثانياً : أ–الأساطير مغزاها ودورها وأسباب ظهورها

تطلق كلمة الأساطير على التراث الرمزي الذي انتقل عبر القرون الطويلة بواسطة اللوحات الطينية والرقم وما تركته الحضارات السابقة على جدران معابدها ورموزها الدينية والمدنية. وقد تم إزالة الغبار ودراسة هذه الأساطير وفك رموزها عن طريق البعثات الاستكشافية الأثرية الغربية التي وفدت إلى المنطقة بحثاً وتنقيبا عن تاريخ هذه المنطقة وتجميع قطع المعلومات التاريخية لتكوين صورة متكاملة عن مجتمع الإنسان في تلك الأزمنة السحيقة أو التحقق من صورة سابقة واستخدام المكتشفات لتثبيتها.

يعتبر بحث الأسطورة طريقة مغايرة لإعادة فتح وقراءة الآلاف بل الملايين من المدونات والرقم والجداريات التي تركتها الحضارات السابقة المتمركزة في المنطقة العربية. الجديد في هذه الطريقة والتي يكمن فيها سر قوتها هي أصالتها، بمعنى عدم فصل الأسطورة عن لغة ومعتقدات وثقافة أهل المنطقةللبحث يؤكد على ضرورة التعامل مع أساطير المنطقة كجزء لا يتجز ّأ من تاريخ هذه المنطقة بكل ما فيها من مظاهر ثقافية ابتداء ً من اللغة التي لابدّ وأن تكون عربيّة ولو بأحد لهجاتها التي توجد منها الآلاف إلى عادات البناء والإنشاء التقليدية إلى أساليب الزراعة والري وأخيراً وليس آخراً المضامين الفكرية للحكم والأمثال الشعبية والعقائد العابرة للأديان والأزمان.

الدراسة التاريخية المستوفية للفترات التي اتجه فيها علماء دراسة الآثار الغربيّون، من شأنه أن يظهر بجلاء أثر الأفكار المسبقة عن تاريخالمنطقة وتقسيم أقوام العالم إلى إثنيّات وا ٍرجاع لغاته إلى مجموعة لغات وفي حالة من الربط العجيب بين نظريات علميّة غير ثابتة أصلاً وا ٍسقاطها على حقائق جغرافية وتاريخية وتفسيرات عقائدية والبحث عمّا يشابهها على الأرض لتحقيق السبق والإنجاز في منافسة محمومة بين القوى الاستعمارية وما يمثّل تلك القوى من باحثين وأكاديميين وقساوسة وجامعي الكنوز والمغامرين وغيرهم.

التخلص من آثار تلك القراءة المبنية على إرث ظالم بل مثقل بالظلم والإجحاف بحق أهل المنطقة وتخليص الأساطير مما علق بها من تفسيرات محرّفة لحقائقها بجهل تارة وبسوء قصد تارة أخرى أصبح ضروريّا في وقت بدأت الأمة تنتفض لتعي نفسها والدور المناط بها على مر التاريخ و تستكشف ما حيك ضدها من مؤامرات طوال القرنين الماضيين أبان انحدارها عن سنام الحضارة الإنسانية وتفنن الآخرين في طمس الحقائق والإمعان في إبقاء الأمة رهن الذل والهوان. العمل الدؤوب لجلاء جوهر الحضارة الإنسانية الراقية المتصلة أبداً بالسماء بإزالة الغبار عمّا

تركه الأولون من أساطير وتفسيرها ضمن ثقافة الأمة التي أوجدتها ستكشف الكثير من درر العقد الضائعة ليستكمل العقد متصلا بالمبدأ من يوم نفخ في أبينا آدم الروح إلى يوم بعث الله نبيّه محمد (صلى الله عليه وسلم) ختاماً به عهد الرسالات والنبوّات ليستكمل الإنسان حضارته إلى الكمال انتهاءً بعروج الملائكة والروح في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما نعد وتعدون.

في هذا البحث لم يتم دراسة آلاف الأساطير وتحليلها، ولكن في المقابل تمّ التأسيس لآلية جديدة أكثر يسراً لأبناء الأمة في سبيل فهم الآلاف من أساطيرها وإعادة دراستها وتفسيرها ضمن أسسها الثقافية والمعرفية.كما أن البحث يفتح حقلاً جديداً للدراسة وزيادة البحث لإكمال التأسيس العلمي للمنهج الجديد وما يستتبع ذلك من ربط بين اللغات القديمة والمعاصرة خاصة اللهجات العامية المتفرقة على جميع أنحاء المنطقة العربية والشرق بشكل عام.

يعتني البحث بدراسة الأساطير القديمة، حيث يتناول في فصله الأول مقدّمة تعريفية عن الأساطير وعن نشأتها، والفرق بينها وبين الخرافات، وتعداد لأنواعها، ثم في الفصل الثاني يعالج علاقة الأسطورة بالتاريخ ويجيب عن السؤال الأهم في البحث وهو: هل يمكن اعتبار الأسطورة مصدراً معتمداً من مصادر التاريخ ولماذا، ثم يتعرّض الفصل نفسه إلى لفظ أساطير الأولين الوارد في القرآن الكريم ويمضي في محاولة للتعرّف على سرّ ذكر هذا اللفظ في كتاب الله، وفي الفصل الثالث يطرح البحث آليات مقترحة لفهم الأساطير والتعرّف على أسرارها وفك أقفالها، ثم يقدّم بعض المحاولات والاجتهادات لتفسير عدد من الأسماء المشهورة في الأساطير على اعتبار أنّ الأسماء تشكّل مفاتيح الولوج لتفسير الأساطير وبالأخص مع ارتباط الأسماء في الأساطير باللغة العربية ولهجاتها القديمة.

مفهوم الأسطورة ونشأتها وأنواعها

في بداية البحث لابد من تبيين مفهوم الأسطورة إذ بدون هذا التبيان يظهر ألا جدوى من البحث نظراً للمفهوم المشوش والمشوّه لمعنى الأساطير في الذهنية العربية الإسلامية، خاصة وأن المفهوم ظلّ غائبا منذ أن هيمنت الثقافة الإسلامية على جميع مناحي الفكر في المنطقة. قد يكون لهذا الغياب أسبابه المنطقية خاصة مع بداية انطلاقة الإسلام كنهج تغييري لكل التأسيسات الاجتماعية سواءً في الفكر أو العلاقات وتنظيمها على أسس توحيدية، وسبك المعارف الفكرية والحياتية في قالب لغوي راقٍ يستغني فيه المسلمون عن أخذ المعرفة من غيرهم أو ممن سبقهم خاصة ولم يبق شيء سماوي إلا واختلط بالأرضي حذفاً وإضافةً وفهماً . يقول المؤرخ الفرنسي "بيير روسي" في هذا الشأن في كتابه "التاريخ الحقيقي للعرب": إذا كان مؤرّخونا المسلمون الأوائل قد أخذوا نظرتهم إلى التاريخ بذلك القصور المبستر فقد كانت لهم أسبابهم ومبرّراتهم الكافية، فهم من جهة كانوا يعملون على تكريس التوحيد الإسلامي فكان لزاما

عليهم رفض وتجاهل كل ما سبق الإسلام من عقائد، ومن جهة أخرى لم يكن لديهم أي اطلاع على الحضارات القديمة إذ كانت هذه قد بادتوانطمرت شواهدها في التراب، فلم يكن المؤر ّخون المسلمون قادرين على القفز فوق شروط عصرهم ومستواه العملي والمعرفي العام".

معنى كلمة أسطورة ومفهومها

كلمة أسطورة كلمة عربية أصيلة على وزن أفعولة وجذرها من الفعل الثلاثي "سطر"، وباعتبار أن ّ لكل ّ كلمة مشتقة (في العربية) جانبين: الأول مادتها والثاني صيغتها أو وزنها، فمادة كلمة "أسطورة" تقوم على جذر فعل يدل على المعنى العام الذي يجمع بين سائر المشتقات منه مثل أسْطُر وسطور وهو الصف من الشيء كالكلمات والشجر ومنها السُطُر وتعني الأقاويل المنم ّقة المزخرفة .. الخ"، أما وزنها : فمن أوزان لغتنا العربية فأسطورة على وزن أُفْعولة" كأحدوثة وألعوبة وغيرها، وجمعها "أساطير" على وزن "أفاعيل"كأحاديث وألاعيب، وهذا ما يؤكّد أن ّ كلمة أسطورة هي أحد اشتقاقات الجذر الثلاثي س ط ر على وزن أُفْعُولَة، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في آيات عدة تحت مسم ّى "أساطير الأولين" وفي ذلك دليل آخر على أن الكلمة ذات أصل عربي فالقرآن نزل عربياً كلّه، وقد ورد لفظ أساطير الأولين على لسان قوم محمد(ص)القرشيين الفصحاء، الذين سمعوا بالأساطير وعرفوها وهم بعد لم يتصل ّوا باليونان أو يقتبسوا شيئاً من ألفاظهموكلماتهم، ولم يرد في التاريخ قبل البعثة النبوية أن ّ العرب قد اقتبسوا من غيرهم وهم الذين يعتز ّون بلغتهم أي ّما اعتزاز. ما يعني بأن من يرى أن كلمة "أسطورة" العربية مقتبسة من كلمة "استوريا" Historia اليونانية وتعني حكاية أو قصة ، "، قلب الحقيقة تماماً، وهو من آثار فرض آراء الغربيين وتفسيراتهم على تراثنا وتاريخنا، فالكلمة عربية في أصلها عبرت إلى شبه الجزيرة اليونانية مع حركة القدماء العرب وهجرتهم، وبالتحديد على يد الفينيقيين الذين استوطنوا سواحل البحر المتوسط وانتقلوا مع لغتهم وتراثهم وكنوزهم إليها، هذه الكلمة كغيرها من الكلمات العربية شكّلت جذور اللغة اليونانية التي نسب إليها واضعو التاريخ في عصرنا الحديث كل الأصول العريقة للمصطلحات والألفاظ، وغضوا الطرف عن أصولها العربية وهو ما أفقدهم في كثير من الأحيان الموضوعية والمقدرة على إدراك الحقيقة والصواب.

والحق ّ أن ّ لكلمة عربية الأصل، حديثا أصبحت تعني السطور أو الأخبار القديمة المدو ّنة المسطورة وهي بمثابة أو ّل كتاب في التاريخ، وقد انتقلت الكلمة إلى اللغات الأجنبية وتطورت لتصبح هـ ستوريا، والهاء حرف تعريف في اللهجة العربية الفينيقية، ثم ّ صارت تعني فيما بعد بـ" التاريخ" في عدة لغات، مع قليل من الاختلافات، فعند اليونان إستورا، وتعني حكاية أو قصة كما تعني "تاريخ"، وفي الإنجليزية نجد كلمة Historyبمعنى تاريخ، وفي الفرنسية إيسْتوار، وفي الروسية استوريا ، وهي كلّها مشتقة من الكلمة العربية أسطورة التي تعنى بكتابة التاريخ وتدوينه.

وبمراجعة تعريفات الباحثين للأسطورة وبالنظر المتعمّق إلى الأساطير باعتبارها جزءا من التراث القديم المعبّر عن نتاجات الأوّلين وأفكارهم وانعكاس تعليم القوى الربّانية لهم، نخلص إلى القول بأنّ الأسطورة هي القصّة الشعرية المصفوفة زجلاً أو شعراً بحيث تحويموضوعاً دينياً يتعلّق بالقوى العلويّة والخفيّة، وتعبّر عن معارف الإنسان الأول وأخلاقه ومستويات علومه وتأملاته، وهي موضوعة في قالب ذي إيقاع شعري موسيقي يتضمن الحدث المراد تأريخه سواء كان من صنع الإنسان أو الطبيعة أو الربّ، لأجل أن يتلى ويُتداول ويؤدي دوره في تثقيف العقول وتحريك المشاعر.

نشأة الأساطير

اختلف الباحثون في منشأ الأساطير بحسب سبقيّاتهم الفكرية والعقلية في تفسير نشأة الكون والإنسان من ناحية والأساطير التي اعتمدوها أساساً لدراسة موضوع الأساطير من ناحية أخرى، "وفي محاولة للوصول إلى أرضية علميةمشتركة في تفسير أصل الأسطورة يقرّر توماس بوليفينشي في كتابه "ميثولوجية اليونان وروما" وجود أربع نظريات في أصل الأسطورة.. وهذه النظريات هي:

النظرية الدينيةالتي ترى أنّ حكايات الأساطير مأخوذة كلّها من الكتاب المقدس مع الاعتراف بأنها غُيِّرت أو حُرِّفت، ومنثَمَّ كان هرقل اسماً آخر لشمشون، والمارد ديوكاليون ابن بروميثيوم الذي أنقذه زيوس مع زوجته من الغرق فوق أحد الجبال هو نوح، وهكذا.

النظرية التاريخيةالتي تذهب إلى أنّ أعلام الأساطير عاشوا فعلاً وحقّقوا سلسلة من الأعمال العظيمة، ومع مرور الزمن أضاف إليهم خيال الشعراء ما وضعهم في ذلك الإطار الغرائبي الذي يتحرّكون خلاله في جوّ الأسطورة.

النظرية الرمزيةالتي تقوم على أنّ كلّ الأساطير بكلّ أنواعها ليست سوى مجازات فُهمت على غير وجهها الصحيح أو فُهمت حرفيّاً، من ذلك ما يقال عن أنّ "ساتورن" يلتهم أولاده أي الزمن يأكل كلّ ما يوجد فيه.

النظرية الطبيعيةوبمقتضاها يتمّ تخيّل عناصر الكون من ماء وهواء ونار في هيئة أشخاص أو كائنات حية، أو أنّها تختفي وراء مخلوقات خاصة، وعلى هذا النحو وُجِدَ لكل ظاهرة طبيعية – ابتداءً من الشمس والقمر والبحر وحتى أصغر مجرى مائي– كائن روحي يتمثّل فيه وتتبني عليه أسطورة أو أساطير. "

ومع التأكيد على خصوصيّة كلّ حضارة وتمايزاتها بحسب ظروفها الزمانية والمكانية ومستوياتها المعرفية وخلفياتها الثقافية، فللخصوصيّة انعكاس كبير على بناء ونشأة الأساطير، إلا أنّ هناك نوعاً من التداخل الذي يخلق تكاملاً بين النظريات الثلاث الأخرى في تفسير أصل الأساطير

مهما كان زمنها أو موطنها، فالنظرية التاريخية تُعطي تفسيراً منطقياً شاملاً لنصوص الأساطير من حيث الواقع والمضمون والشكل، وتكاد تفسّر كل الأشياء الواردة في الأساطير، لأنّ الأساطير في مُجْمَلها تحكي أفعالاً عظيمة لقوى ملائكية أو بشرية كان لها دور رئيسي في تشييد أساسات النظام على هذا الكوكب، والنظرية الرمزية تركّز على الشكل الذي ظهرت عليه الأساطير كونها تستخدم الرموز كمجازات للتعبير عن معاني عظيمة ولكن باستخدام لغة بسيطة مثيرة، وإنّ فهم هذه الرموز يعتبر المفتاح الرئيسي لفهم الأسطورة بأكملها، أمّا النظرية الطبيعية فليست إلا صورة من صور النظريّة الرمزيّة التي تضفي صفة رمزية على الظواهر الطبيعية من ماء وهواء بكائنات ومخلوقات مرئية من الطبيعة، وإذا كان قدامى المصريّين قد رمزوا لأبجديّتهم برموز من الطبيعة كالطيور والحيوانات والأدوات فيما سُمّي الكتابة الهيروغليفيّة فإنّ أبجديّة الأسطورة من قوى الطبيعة وظواهرها قد تشخّصت حال تدوينها وأسطرتها في أسماء أفراد، ولو جمعنا النظرية التاريخية مع الرمزية لحصلنا على تفسير متكامل ومن أبعاد متعدّدة لأصل الأسطورة ونشأتها.

وكنموذج فإن أسطورة (إيتانا والنسر) تشير أقرب ما تشير إلى قصة الخليقة الأولى ومعصية أبينا آدم كما جاءت في النصوص الدينية المتعددة، وهذه الأسطورة التي تستخدم الرمز المعبّر عن الحقيقة، تسرد واقعاً تاريخيّاً حدث في زمان ما ومكان ما، ولكن تمّ فصله من الزمان والمكان ليتحوّل إلى نشيد يتزنّم به الأجيال حفاظاً على الحقيقة التاريخية من الضياع ودرساً في السلوك والحذر من السقوط في جو من الشحن العاطفي للتعالي والسموّ.

فبعد هذا التوضيح لابدّ وأن القارئ الكريم أدرك الفرق بين الأسطورة التي تمثّل سرداً لتاريخ حدث بالفعل أو تعليماً يتناقله الأجيال والخرافة التي لا تمتّ إلى الواقع بأدنى صلة، وإن اتصل بعناصر من الواقع فهي خالية من المعرفة التي تنشئ حضارة وتبقيها قائمة. كما أنه سيدرك ما عنى به المشكّكون في مضامين القرآن بأنه من عند الرسول (ص) حيث قالوا عنها أساطير لا لخوائها من المعرفة بل العكس تماماً، أي لأنهم وجدوا العلوم والمعارف الموجودة في الأساطير متضمنة في آيات القرآن الكريم المنزل على الرسول الخاتم (ص).

كما يمكن تصنيف الأساطير حسب الأهداف التي وضعت لأجلها فهناك الأساطير التعليمية التي كان الغرض منها نقل الفنون عبر الزمان والمكان كالطبابة وأساليب الزراعة التي تعتبر من أعظم التحولات الإنسانية التي انتقلت عبرها من حياة البداوة إلى بداية الحضارة ويمكن قراءة ذلك بوضوح في الأسطورة السومرية عن زواج أنانا من ديموزي. كما أن هناك الأساطير الوعظية التي يدور موضوعها حول الحثّ على التزام الحكمة وبناء القيم، وتأصيل علاقة سليمة بين الإنسان وبين الرب، وتحذّر من مغبة عصيانه أو التمرّد عليه أو منازعته في دوره ومقامه وقدراته ويمكننا أن نجد الكثير من هذه المواعظ في ملحمة جلجامش على سبيل المثال لا الحصر.

وهناك ايضا الأساطير العلمية التي تتحدّث عن قضايا علمية كالخلق والتكوين وأصول الأشياء، وهي من الأساطير التي تبهر العقل وتدهشه لتضمّنها معاني عظيمة عن خلق الكون، وخلق السماء والأرض، وخلق النبات وخلق الحيوان والإنسان، وتعتبر أسطورة التكوين البابلية من أهم أساطير الخلق.

قيمة الأسطورة

السؤال الجوهري الذي يجب طرحفي هذا المكان بعد أن تعرّفنا على مفهوم الأسطورة ونبذة عن نشأتها وأنواعها هو: ما قيمة الأسطورة؟ تتحدد الإجابة على هذا السؤال من خلال معرفة القيمة التاريخيّة للأسطورة وكذلك معرفة القيمة التي يعطيها القرآن الكريم للأسطورة وذلك من خلال تتبع آياته الكريمات التي ذكرت فيها الأسطورة.

لمعرفة القيمة التاريخيّة للأسطورة لابدّ من التأكد ما إذا كنا نتمكّن من معرفة أخبار الماضين أي معاصري الأساطير من خلال أساطيرهم أم لا؟ وهل هناك وسائل أخرى للحصول على هذه المعرفة غير الأساطير؟ إن ما وصلنا اليوم هو بعض الأدوات التي كانت مستخدمة في تلك العصور وبعض مما تبقّى من مباني مشيّدة بأساليب مختلفة، أما المضمون الثقافي الذي وصلنا فهو مكدّس في الأساطير والتي يمكننا بإعادة قراءتها ضمن منظومة منسجمة مع تراث المنطقة أن يفتح لنا أبواباً من منظومة العلاقات التي كانت قائمة والفكر السائد في تلك الحقب البعيدة.

أن ما نستنتجه من هذه القراءة توضّح القيمة التاريخية للأساطير التي يمكن أن نوجزها بعدة نقاط منها:

أولاً: أثراً من الغيب يقف وراء علم الأوائل لتلك الحقائق، وإلا فكيف اهتدت تلك الأقوام جميعها إلى هذا الأمر وكيف اتفقت على الأفكار ذاتها، وأنّى لهم أن يتناولوا قضايا رئيسة كخلق الكون والإنسان كحقائق مؤكدة في مدوّناتهم ونقوشهم؟ أكانوا شهوداً حينما تمّ الخلق؟ تقول الآية الشريفة: (ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ) (الكهف:٥١). فتطابق الأساطير مع الكثير من الحقائق التي طرحها وأكّدها القرآن الكريم كمسألة خلق السماوات والأرض في ستة أيام وخلق الإنسان الأوّل واجتباء آدم ودخوله الجنّة ثمّ خروجه منها، وغيرها من الحقائق يدل على صحّة مضامينها، وإنها كما القرآن الكريم وحي الله إلى عباده عبر أنبيائه، وأنّ القوم كانوا موحّدين عالمين بنظام الكون مذعنين له.

ثانياً: هناك طابعاً مشتركاً لهذا التراث يتجلّى بوضوح في الوحدة الواضحة لمضامين الأساطير خاصة في حديثها عن القضايا الكبرى كخلق الكون والإنسان، لاحظنا في الأمثلة السابقة التي تحدّثت عن بداية الخلق وعن خلق الكون والإنسان كيف أنّها احتوت على فكرة واحدة وهو ما يشير إلى وحدة اجتماعيّة وثقافيّة وعلميّة لتلك الشعوب، بل إنّ بعض الأساطير

وبسبب تلفها أو فقدان بعض أجزائها يمكن توقّع الأجزاء الناقصة منها عن طريق مقارنتها مع أساطير الحضارات المجاورة، وقد اتّجه كثير من الباحثين إلى محاولة الإمساك بالحبل الرابط الذي يجمع كلّ تلك المعلومات في حلقة متكاملة، فجاءت الأساطير كشاهد على التطوّرات السياسية والدينية والأدبية التي مرّت بها الحضارة السابقة لها.

ثالثاإنّ كثيرا من الشخصيات التي كانت تدور حولها الأساطير هي شخصيات تاريخية واقعية من ملوك أو حكام أو أشخاص من الشعب كان لهم دور في الحركة المجتمعية والحضارية لذلك الزمان، وكذلك المدن التي دارت في فضائها الأساطير، فقد أثبتت البحوث الأثرية وجودها وقيام حضارات كبيرة فيها.

رابعاًأنّ الأساطير لم تكن اجتهادات أو أعمال فردية، بل إنّها كانت أعمالاً مقصودة ضمن منظومة عامة خُطّط لها بعناية، وإن وجودها في المعابد ومكتبات الملوك يعطيها اعتبارا إضافيا، فقد كانت تُكتَب برعاية الملك نفسه والكهنة لإثبات أنّها ليست خيالا فرديًا، بل هي نتاج لتوجّهات الجماعة وعقائدهم وآمالهم الأمر الذي أعطى للأساطير قيمةً كبرى سواء لدى المعاصرين لها أو للأجيال القريبة والبعيدة.

خامساً لم تكن الأساطير الأسلوب الوحيد الذي عبّر من خلاله الإنسان الأوّل عن أفكاره، فإلى جانب الأساطير، نجد الكثير من الرسوم والتصاوير التي وجدت منقوشة على جدران المعابد، فالقوم كانوا يؤكدون على الفكرة بأشكال مختلفة تماما كما يفعل إنسان اليوم، ولحفظها من أن تنالها يد التحريف ثانياً، نقشوها برعاية الملك والكهنة فوق جدران المعابد والقصور أو كتبوها على ألواح طينية ورُقُم تذهل العقل لدقتها وبراعتها، أو وضعوها داخل جرار ثمينة وحفظوها في المعابد، وفي مكتبات القصور الملكيّة.

أما بالنسبة لتقييم القرآن للأساطير فقد ذُكرت لفظة "أساطير الأولين" تسع مرات ونجد أن العنصر المشترك في جميع آياتأسأطير الأوّلينأنّها وردت على لسان الكافرين لدعوة الحقّ، ولم ترد على لسان غيرهم من أهل الكتاب، كما أنّ كلّ الآيات قيلت في مناسبات الاحتجاج والجدال حول قضايا إيمانية عقلية منطقية تدعوهم إلى النظر في الدعوة الجديدة نظرة متجرّدة أبرزها الدعوة للتوحيد وقبول البعث والحساب، وأمام عجزهم عن ردّ الحجة بالحجة يلجأون إلى إغلاق باب الجدال بنسبة ما يسمعونه إلى أساطير الأولينوفي ذلك إشارة واضحة إلى أنّ هؤلاء كانوا يعلمون أنّ هناك تراثا مسطورا وضعه الأوّلون ويبدو أيضا أنهم كانوا يحتفظون في أذهانهم ببعض معالمه، ودعوة الرسول قد ذكّرتهم بتلك المعالم، فأقرّوا بأنّ ما يعرفونه سابقاً عن أساطير الأولين يتضمّن معاني تقترب لما جاء به الرسول وهي تخالف معتقداتهم وما هم عليه.

ولإلقاء الضوء على الصلة بين مضامين ما جاء به الرسول (ص) والأساطير، وجب أن نفهم معاني هذه الآيات والتي تمثّل الداعي لتوجيه هذه التهمة، أي أن الآيات منحولة من أساطير

الأولين لتوضيح هذا المعنى نفصّل في آيتين ذكرتا الأساطير من مجموع تسع آيات – يمكن مراجعتها – وهما الآية ٢٥ من سورة الأنعام والآية ٨٣ من سورة المؤمنون.

أولا : سورة الأنعام:

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥)

تتحدث آيات سورة الأنعام عن التوحيد لله عبر دلائل آياته في خلقه، والرسول يذكّرهم بالحقيقة كاملة، حقيقة الوجود وغايته ومنتهاه بدلائل سمعية عقلية وبشواهد وآثار يرونها حولهم، أما "الذين كفروا" فقد أغلقوا على أنفسهم منافذ التفكير، على الرغم من استعراض السورة لسلسلة من الأدلّة العقلية في موضوعات مختلفة تؤدي حتماً عند المتأمّل العاقل للإيمان بالله وتوحيده وفق منطق البرهان العقلي، وقد كان أولئك يستمعون إلى تلك الأدلة إلا أنّهم لم يتمكّنوا أن يفقهوا شيئا مما يسمعونه بسبب حجب يعانون منها، تلك الحجب أغلقت عليهم أهم منفذ من منافذ العلم وهو الاستماع المتجرّد، أمّا المنفذ الآخر لإدراك الحقائق وهو "الرؤية" أي معاينة الآيات والدلائل الخارجية التي تفسح المجال أمام العقل للتفكير والمراجعة فهو الآخر واقع تحت شراك تلك الحجب.هذه الآية الكريمة تعبّر عن ردة الفعل تجاه ما يسمعون من آيات القرآن الواصفة لما يرون من خلق الله سبحانه بأنها أساطير الأولين. بمعنى أن أساطير الأولين ليست إلا مقولات واصفة للمخلوقات وعملية الخلق ودلائل توحيد الخالق كما هي دعوة الرسول (ص) وإنه (ص) لم يأت بجديد.

ثانيا: سورة المؤمنون:

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣)

المشركون اعترفوا بأنّ التوحيد والبعث والوعود الإلهية موجودة في أساطير الأوّلين، ولكنّهم لا يأبهون بها ويعدّونها من قبيل الخرافات، والآيات بإعراضها عن الردّ عليهم تقرّهم على مقالتهم لأنّها ما خالفت وجه الحقيقة، فالتوحيد ونبذ الشرك مفاهيم موجودة في الأساطير، والأحاديث عن عوالم سفلية وجنّة علوية ويوم حساب موجود أيضا في الأساطير، والآيات هنا تنقل مقالتهم، وتستهزئ بعقولهم التي حكمت على القضايا العقلية بالبطلان وهي مذكورة عند الأوّلين، وتذكّرهم بأن ثمّة أوّلين معاندين أيضاً من قبلهم قالوا مثل قولهم، والأوّلون لفظ لا يرتبط بمرحلة معينة، فكل من سبق عصر المتكلّم هو من الأوّلين، فهم لم يختلفوا عمّن سبقهم في شيء، فتلك هي سمة البشر على مرّ الأزمان، فإنكارهم وإعراضهم ليس بجديد، فقد فعله من قبلهم، ومقولتهم تشبه مقولة الذين سبقوهم في ردّهم على أنبيائهم، ووعد الله قائم لا تمنعه اعتراضات المعترضين.

كيف نقرأ الأساطير؟

لقراءة الأساطير لابدّ من مراعاة عدة أمور هي:

اعتبار الحضارات القديمة في المنطقة العربية على امتدادها التاريخي الذي يصل غربا إلى شمال أفريقيا وشمالا إلى سوريا وجنوب أوروبا وشرقا إلى العراق والخليج العربي وفارس ثمّ جنوبا إلى اليمن وعمان، لا بدّ من النظر إليها على أنّها منطقة واحدة ذات خصائص مشتركة ارتبطت في أصولها العرقية واللغوية بجذور متشابكة ممتدّة في عصور التاريخ القديم، هذا الأصل يمكن أن يساعد بدرجة كبيرة على سدّ الثغرات التي تطرأ في حالة دراسة كلّ حضارة على حدة، ومن ثمّ اعتبار أساطيرها واحدة من حيث المؤدى والمضمون.

إنّ "كتابة"أي لغة لا تعادل اللغة ذاتها، لأنّ اللغة هي دائما بناء حي أعلى كثيرا من إمكانية حصرهكتابيا، إذ اللغة هي الكلام بإضافة كلّ ما يصاحبه من حركات جسدية وتوريات وتلميحات ومعاني باطنة مشتركة بين المتحدث والمتلقي بالإضافة إلى الانفعالات والتداعيات التي يستثيرها قول معين بطريقة معينة لدى أبناء اللغة الواحدة، فمن الطبيعي أن تقفَ الكتابة عاجزةً عن أداء كلّ ذلك حتى بين من يتخاطبون بلغة واحدة مشتركة. والأساطير مكتوبة بلغة بدائية غير قادرة على احتواء القسم الأكبر من التعابير اللغوية، ولكن من الناحية الأخرى تحتوي على الجانب الأهم من المعارف وقد تم استخدام الكثير من الإمكانيّات اللغوية من القصّ والتمثيل لتثبيت الأفكار وسريانها عبر الأمكنة والأزمان المختلفة. فأمام هذا التراث جاء المترجمون من لغات بعيدة عن المنطقة، وباستخدام لغات أخرى قديمة كالهيروغليفية أو أحدى اللهجات الفارسية القديمة لفك الأساطير. فمن ناحية لغاتهم لا تحتوي على بعض حروف لغات المنطقة كالحاء والصاد والضاد والطاء والظاء والعين والقاف عدا غياب الحركات في اللغات المكتوبة عدا الجهل المطلق بفوارق اللهجات في اللغة الواحدة.فيمكن للقارئ تخيّل أي كلمة عربية ولفظها كما يلفظها الأوروبيون وا ٍعادة كتابتها بالإملاء الجديد.

ب–سمات التفكير الاسطوري والتفكير المنظم

مما لاشك فيه أن العلاقة بين الأسطورة و الفلسفة متداخلة و هي علاقة متشابكة لا يستطيع أحد أن ينكرها وأن يغفل أهمية تلك العلاقة. بعض الفلاسفة يروا أن الأسطورة هي المقدمة الطبيعية

و الأساسية لظهور التفكير الفلسفي. بمعني أن التفكير الفلسفي انبثق عن التفكير الأسطوري. و هذا واضح و جلي في بلاد اليونان. حيث سبق التفكير الأسطوري ظهور التفكير الفلسفي. فالتفكير الأسطوري كان يدور حول الآلهة و صراعاتها علي جبل الاولمب. و بعض الفلاسفة و المفكرين يرون أن الأسطورة عامل مشترك في الفكر الإنساني، لان بداية هذا الفكر كانت مثل الطفل الرضيع الذي يحبو أولا ثم يمشي علي قدميه ثم يشب عن الطوق حتى و صل هذا الفكر إلي ما نحن عليه الآن. و يجب أن نشير إلي أن الأسطورة و الفلسفة علي اتصال دائم و مباشر ، و لقد تطورت الأسطورة علي مر التاريخ و مع ذلك ظلت تحظي باهتمام الفكر البشري بداية من عصر الصيد و هي المرحلة التي سبقت العصر الحجري حيث تبدو الصلة و العلاقة بين الأسطورة و الفلسفة غامضة لان عقيدة الإنسان في تلك المرحلة انصبت علي الاهتمام بموارد حياته و في مقدماتها الحيوانات. و في مقدماتها الحيوانات، وفي العصر الحجري ظهرت التمائم التي يعتقد أنها تجلب الرزق. و إذا أردنا أن نعرف الأسطورة لغة فهي الأحاديث المنمقة أو المزخرفة التي لانتظام لها، فهي مشتقة من السطر من الشئ بمعني الصف من الكتاب و الشجر و النخل و نحوها. كما أنها في اليونانية مأخوذة من (Mutho) وتعني حكاية تقليدية عن الآلهة و الأبطال. هذه الحكاية تتحدث عن الآلهة و أعمالهم و نشأتهم ، وهي من اجل هذا المعني اتخذت قديم ًا من اجل تفسير كل الظواهر الغير مألوفة. و الأسطورة تحكي قصصا مقدسة تبرز ظواهر الطبيعة مثلا أو نشوء الكون أو خلق الإنسان و غير ذلك من الموضوعات التي تتناولها الفلسفة. إذا موضوعات الأسطورة تعتبر أيضا مادة خصبة للفلسفة لكن التناول مختلف ، الأسطورة تعتمد علي الخيال و الأشياء الغير مألوفة ، و الفلسفة تعتمد علي العقل و المنطق في تناول الموضوعات. و لا يستطيع احد أن ينكر هذا التداخل بين الأسطورة و الفلسفة. و من أهم الأساطير في بلاد الرافدين أسطورة جلجامش التي تحكي عن موضوع الخلود ، كذلك قصة الطوفان التي جاء ذكرها في القران و التوراة. و للأسطورة أنواع متعددة منها الأسطورة التاريخية ، و الأسطورة الدينية و الأسطورة التفسيرية. و إذا كانت الأسطورة تصدر عن حالة عاطفية تتخطي العقل لتنتج صورا ذهنية مباشرة تعكس تلك العلاقة بين الذات الموضوع ، فان الفلسفة تنظر للموضوعات برؤية عقلية. و يجب أن نشير إلي حقيقة هامة و هي أن ظهور الفلسفة في بلاد اليونان إعلانا عن إحداث قطيعة في التفكير الأسطوري و الانتقال من الخطاب الشفوي الأسطوري إلي الخطاب الفلسفي الذي يعتمد علي الاستدلال العقلي.ورغم هذا إلا أن الأسطورة و ظيفتها في تاريخ الفكر البشري هذه الوظيفة لا نستطيع أن نغفلها أو نغض الطرف عنها ، وفي مقدمة هذه الوظائف تفسير الظواهر الطبيعية و الاجتماعية و الثقافية في مجتمع ما خاصة المجتمعات البدائية. و للتفكير الأسطوري سمات تختلف تماما عن التفكير الفلسفي. التفكير الأسطوري له خاصية القبول المطلق لفكره معينة و بالتالي الرفض المطلق للأفكار الاخري، و

هذا عكس التفكير الفلسفي الذي يقبل الرأي الآخر و يغترف به. كذلك التفكير الأسطوري لاعقلاني أما التفكير الفلسفي فهو عقلاني. و خلاصة القول أن الأسطورة و الفلسفة بينهما و وشائج قربى و يعتبر بعض المفكرين أن الفلسفة قد اكتشفت في الأسطورة البناء الوجودي والصورة الأصلية التي تعبر عن ارتباط الإنسان بالواقع و الحياة . و لقد اعتبر فلاسفة اليونان أن الأسطورة هي الحقيقة في صورتها الرمزية و علي الفلاسفة أن يرفعوا الحجاب عن هذه الحقيقة الرمزية ، فكان الأسطورة تخفي الحقيقة و تأتي الفلسفة لإظهارها.